

ت. الإرسال: 15 - 07 - 2025	ت. القبول: 12 - 09 - 2025	ت. النشر: 28 - 12 - 2025
----------------------------	---------------------------	--------------------------

مدرسة "أحريق" الإصلاحية بمنطقة القبائل نموذج للنضال التربوي والفكري في فترة الاحتلال الفرنسي

The "Ahriq" reform school in Kabylie:

A model of educational and intellectual struggle during the French occupation period

بورنان سعيد 

جامعة مولود معمري تيزي وزو. الجزائر.

said.bourenane@ummtto.dz

الملخص:

هذا البحث دراسة تاريخية لتجربة تربوية نضالية متميزة احتضنتها قرية "أحريق" بمنطقة القبائل خلال فترة الاحتلال الفرنسي، وبالتحديد في الفترة الممتدة من سنة 1949 إلى سنة 1956م. يهدف البحث إلى إبراز قيمة مدرسة "أحريق" الحرّة، التي جمعت بين التعليم والمقاومة الثقافية، وهذا من خلال رصد الدور التربوي والإصلاحي الذي اضطلعت به، والأثر الذي أحدثته في المنطقة. ولغرض الإحاطة بمختلف جوانب الموضوع، وتحقيق الأهداف المرجوة، تم تحديد إشكالية البحث كالآتي: ما طبيعة الفعل التربوي والإصلاحي الذي اضطلعت به مدرسة "أحريق"؟ وما مدى فاعليته وتأثيره في المدينين القريب والبعيد؟ اعتمد الباحث مقارنة بحثية تجمع بين المنهج الوصفي التاريخي، والمنهج التحليلي، وهذا من خلال توظيف وتحليل المادة التاريخية المستخلصة من المصادر والمراجع. تتمثل المصادر في الوثائق الأرشيفية المحفوظة في الأرشيف الوطني لما وراء البحار بـ "أكس أون بروفانس"، وتلك المتواجدة على مستوى مصلحة الأرشيف الولائي بولاية تيزي وزو، والتي تعود إلى الحقبة الاستعمارية. هذه الوثائق عبارة عن تقارير دورية استخباراتية أنجزتها جهات إدارية وأمنية فرنسية حول سير التعليم في الزوايا والمدارس الحرّة، وهي تتضمن معلومات بالغة الأهمية حول مراحل إنجاز المدرسة، وتعداد طلبتها، وسير معلمها، وما صدر ضدهم من أحكام قضائية، فضلا عن أساليب الإدارة الفرنسية للحد من المد الإصلاحية والثقافي لنشاط هؤلاء المعلمين في المنطقة.

وإلى جانب الوثائق الأرشيفية، هناك شهادات شفوية لأحد أبرز معلمي المدرسة، وهو الشيخ "صالح صالح"، سجلها عنه الباحث في مقابلة شخصية معه سنة 2008م، وشهادات مكتوبة سجلها بعض طلبة المدرسة السابقين. تشكل هذه الشهادات مصدرا مكملًا للوثائق الأرشيفية في بعض جوانب الموضوع. وإلى جانب المصادر، استفاد الباحث من بعض الكتابات العامة، التي تم إدراجها في قائمة المراجع. وهذه الكتابات، وإن لم تتناول بشكل مباشر موضوع البحث، فقد تضمنت معلومات مفيدة في بعض جوانبه الجزئية.

من النقاط الأساسية التي حرص الباحث على إبرازها في هذه الدراسة، الدور الفعال الذي اضطلع به سكان القرية ومغربيوها في إنجاز المدرسة وتغطية نفقات تسييرها، نشاط معلمها وجهودهم في تطوير التعليم ونشر الفكر الإصلاحية النهضوي في المنطقة، إضافة إلى موقف الإدارة الاستعمارية، والآثار الإيجابية التي أحدثها هذا المشروع التربوي على مستوى قرية "أحريق" والقرى المجاورة لها.

خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، أهمها أنّ مدرسة "أحريق" مثّلت تجربة تربوية رائدة في سياقها الزماني والمكاني، وقد أدركت السلطات الاستعمارية خطورتها فسعت لعرقلتها والتضييق عليها بشقّ الوسائل، كرفض منح رخص التعليم للمدرسين، وفرض غرامات مالية عليهم وعلى المشرفين على المشروع، بل بإجراءات الغلق المؤقت للمدرسة أحيانا. وفي المقابل استمات السكان

والمدرسون في الدفاع عن مشروعاتهم التربوي وحمايتهم، وتحملوا في سبيل ذلك صنوفا من الضغط والتضحية، إدراكا منهم لأهمية العلم في النهوض بمجتمعهم، وصناعة مستقبل أبنائهم.

وخلال سنوات قليلة من نشاطها، خرجت المدرسة دفعات من الطلبة، وأصل عدد منهم تكوينهم داخل الجزائر وخارجها، فأصبحوا إطارات خدمت الجزائر المستقلة. وأسهم معلّمو المدرسة بفعالية في نشر الفكر الإصلاحي وبث الوعي الوطني بين سكان المنطقة، فساعد ذلك وبشكل غير مباشر، في تهيئتهم نفسيا وفكريا لتقبل فكرة الثورة والانخراط فيها، ما يجعل هذه التجربة التربوية جديرة بالدراسة والاعتبار.

الكلمات المفتاحية: مدرسة "أحريق"، التعليم الحر، الحركة الإصلاحية، التعليم في منطقة القبائل.

Abstract :

This paper offers a historical analysis of a significant educational and reforming initiative that originated in the village of "Ahrik" in the Kabylie region during the French colonial era, specifically from 1949 to 1956.

The goal is to explain how the school came to be, who helped start it, how the colonial government reacted to its activities, and what role it played in the community and beyond as an educational and reformist institution.

The primary research inquiry is: What was the character of the educational and reforming objectives of the "Ahrik" school, and what was its efficacy and impact in both the short and long term?

To answer this question, the researcher used a strategy that integrated historical description with analytical interpretation. The research utilized archival records from the National Overseas Archives in Aix-en-Provence, France, and the provincial archives of Tizi Ouzou, originating from the colonial period. These documents contain periodic intelligence reports compiled by French administrative and security services, offering significant insights into the phases of the school's establishment, student enrollment figures, the biographies of its educators, the judicial actions taken against them, and the strategies employed by colonial authorities to reduce their reformist and cultural impact.

Along with historical evidence, the study also used oral and written testimonials. One of them is an interview from 2008 with Sheikh "Salah Salah", one of the school's best-known teachers. Another is a collection of stories from previous students. These testimonies add to the official papers by giving a more personal and societal view of the school's story. The researcher also looked at broad historical texts that, while not directly about the "Ahrik" school, gave useful information about the intellectual and social environment of that time.

The findings highlight several critical aspects: the crucial role of villagers and expatriates in funding and sustaining the school; the commitment of teachers who worked to enhance education and spread reformist ideas despite colonial constraints; and the colonial administration's persistent efforts to hinder the project through the denial of teaching licenses, the imposition of fines, and occasional directives for temporary closures. But the town and its instructors fought back with all their might, even though they had to deal with pressure and make sacrifices. They believed that education would improve their society and provide their kids a brighter future.

Even though the school didn't last long, it turned out groups of students who went on to study in Algeria and other countries. Many of them later became professionals in independent Algeria. The professors also played a key role in propagating reformist ideas and developing national identity, which indirectly prepared people to accept the idea of revolution and join the national liberation effort.

Keywords: "Ahrik" school, Independent Education, reform movement, education in the Kabylie region.

المؤلف المرسل: سعيد بورنان، الإيميل: said.bourenane@ummto.dz

لم تتخلف منطقة القبائل عن مواكبة الحركة الإصلاحية والتربوية التي عرفتها الجزائر خلال النصف الأول من القرن العشرين. وفي هذا السياق برزت في المنطقة مبادرات محلية واعية لتأسيس مدارس حرّة شكّلت منطلقاً لنشر التعليم، وترسيخ الفكر الإصلاحي النهضوي، وتعزيز الوعي الوطني، فضلاً عن صون الهوية الثقافية والدينية من محاولات الطمس الاستعماري. ويتناول هذا البحث بالدراسة، واحدة من هذه المبادرات التربوية الرائدة في المنطقة، وهي المدرسة التي تأسست في قرية "أحريق"، إحدى قرى عرش "آث يجر" المعروف في العهد الفرنسي بدوار "أكفادو"، والذي يتّصل إدارياً بالبلدية المختلطة "سيباو الأعلى" (عزازقة)¹.

تأسست مدرسة أحريق في سياق تاريخي خاص، حيث اجتمعت إرادة أبناء القرية المغتربين بفرنسا، مع جهود سكانها المقيمين، وبتوجيه وتأييد من جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لتجسيد هذا المشروع الحيوي الذي يوفّر لأبناء القرية تعليماً أصيلاً، وتكويناً يُعدهم لمواجهة تحديات الحياة المستقبلية. ورغم عراقيل الإدارة الاستعمارية التي واجهت المشروع منذ كان مجرد فكرة، فقد تأسست المدرسة وافتتحت سنة 1949م، وظلّت تؤدي رسالتها التربوية إلى تاريخ إغلاقها سنة 1956م.

تظهر أهمية هذا الموضوع من خلال الأدوار الهامة التي قامت بها المدرسة في نشر التعليم، وبتث الوعي، ليس فقط في أوساط طلبتها، بل في سكان القرية والقرى المجاورة أيضاً. والملاحظ هو أنّ هذه التجربة التربوية رغم خصوصيتها وأهميتها من الناحية التاريخية والتربوية، فإنّها لم تحظ بالاهتمام الكافي من قِبل الباحثين، فليس هناك بحث أكاديمي تناول هذه التجربة بشكل تفصيلي ومععمق، فكل ما هنالك إشارات مقتضبة عن تاريخ المدرسة ونشاطها وردت في بعض الكتابات، مثل كتاب محمد الحسن فضلاء "المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر"، ورسالة ماجستير التي أنجزها يسلي مكران بعنوان "الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل 1920-1954م". فقد قدم الكاتبان بعض المعلومات الجزئية والعامة عن المدرسة، لكن دون التطرق التفصيلي لهذه التجربة التربوية المتميّزة. ولمحمد أرزقي فراد مقال صحفي نشره في جريدة "الشروق" بعنوان "أحريق.. سيّدة القرى"، اعتمد فيه بدرجة أكبر على الشّهادات الشفوية، مع غياب الوثائق الأرشيفية. ولعل أهم ما يميّز كل هذه الكتابات، هو عدم توظيفها للوثائق الأرشيفية التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، رغم أهمية هذا النوع من المصادر في دراسة الموضوع. فرغم ما تقدمه هذه الكتابات من معطيات تاريخية مفيدة، إلا أنّها تبقى محدودة من حيث التوثيق، وتفتقر إلى العمق والتحليل المنهجي الصّارم.

وانطلاقاً من هذه الملاحظة، تبرز أهمية هذا البحث الذي نسعى من خلاله إلى الإحاطة بمختلف جوانب التجربة التربوية المتميّزة التي احتضنتها قرية "أحريق"، ورصد أبعادها التربوية والفكرية والتاريخية، ومن ثمّ الإجابة عن الإشكالية الرئيسية التالية: ما طبيعة الفعل التربوي والإصلاحي الذي اضطلعت به مدرسة "أحريق"؟ وما مدى فاعليته وتأثيره في المديين القريب والبعيد؟

ومن هذه الإشكالية الرئيسية تنبثق جملة من الأسئلة الفرعية:

- ما السياق التاريخي الذي نشأت فيه مدرسة "أحريق"؟

¹. حالياً قرية "أحريق" تابعة لبلدية بوزقان بولاية تيزي وزو.

- ما هي الأطراف التي ساهمت في إنشاء المدرسة وتمويلها؟

- ما طبيعة المناهج الدراسية المطبقة في المدرسة؟

- كيف كان موقف الإدارة الاستعمارية من نشاط المدرسة ومعلميها؟

- إلى أي مدى ساهمت المدرسة في نشر الفكر الإصلاحي وبث الوعي الوطني في المنطقة؟

أما بخصوص المصادر، فقد اعتمدنا بصورة أساسية على وثائق أرشيفية تم العثور عليها في الأرشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار بـ "أكس أون بروفانس"، وفي مصلحة الأرشيف الولائي بولاية تيزي وزو، وهي عبارة عن تقارير رسمية تضمنت مادة تاريخية ذات قيمة علمية في الموضوع. كما وُضِّفنا شهادات حية لبعض الفاعلين والمشاركين في هذه التجربة، وبالأخص تلك التي استقيمتها شخصيا من الشيخ "صالح صالح"، أحد أبرز معلمي مدرسة أحريق، وكذا ما سجله بعض طلبة هذه المدرسة، وهم: أحمد سعداوي، محي الدين بلعباس، وأكلي بلعباس. وقد سمح كل ذلك بتقديم دراسة شاملة عن ظروف نشأة المدرسة، وأدوارها، والتحديات التي واجهتها، فضلا عن أبعادها التربوية والفكرية والاجتماعية في ظل الاحتلال.

1- فكرة إنشاء المدرسة:

ظهرت فكرة إنشاء مدرسة إصلاحية بقرية "أحريق" في أوساط شبابه المقيمين في ديار الغربية، وتحديدًا في العاصمة الفرنسية باريس². ففي هذه المدينة، بدأ هؤلاء المغتربون، منذ أواخر ثلاثينات القرن العشرين، في الاحتكاك بأعضاء فرع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين العاملين في حقل الإصلاح الديني والثقافي بفرنسا، فكانوا يحضرون مجالس الوعظ والإرشاد التي يقيمها العلماء في المقاهي وفي نواديهم المنتشرة في باريس وضواحيها³.

هذا الاحتكاك والتفاعل الفكري أحدث أثرا بالغا في نفوس بعضهم، ودفعهم إلى التفكير في مشروع يساهمون من خلاله في النهوض بقريتهم. ومن هنا طُرحت فكرة تأسيس صندوق تضامني خاص بالقرية يُموَّل باشتراكات المغتربين، ويُوَجَّه للقيام ببعض المشاريع في القرية. وفي خطوة جسدت وعيًا جماعيا بأهمية العمل التضامني في سبيل الصالح العام، جرت سلسلة من الاتصالات واللقاءات المحدودة، تُوِّجت بانعقاد اجتماع موسَّع في ربيع عام 1947م ضم غالبية المغتربين من أبناء القرية، وفيه اتفق الجميع على إنشاء الصندوق، وتحديد مبلغ الاشتراك الشهري لكل فرد، وهو مائتي فرنك فرنسي (سعداوي وبلعباس، (د.ت: 1).

كان المشروع المتفق عليه في البداية هو إقامة سور حول مقبرة القرية، غير أنَّ غاية بعض أبناء القرية الواعين كانت أبعد من هذا، فقد اقترحوا مشروعًا ذا أهمية أكبر، وهو تأسيس مدرسة حرّة لتعليم أبنائهم، على غرار مدارس التربية والتعليم التي أنشأتها جمعية العلماء في الكثير من قرى ومدن القطر الجزائري. وهنا يجدر التذكير، بأنَّ السبب المباشر الذي ساهم في نضوج فكرة المدرسة حسب بعض قدماء تلاميذها، هو حضور بعض مهاجري القرية لحفل ثقافي أُقيم بإحدى قاعات باريس، قدَّم خلاله فوج الكشافة الإسلامية

². تشير بعض التقارير الفرنسية إلى أنَّ عدد مهاجري القرية في باريس بلغ في بداية خمسينات القرن الماضي، نحو مئة مهاجر. أنظر:

ANOM (Archives nationales d'outre-mer), Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Caid d'Akfadou, (31 Décembre 1952), information sur Hadj Brahim Lounis, rapport adressé au chef de C.M Haut – Sebaou.

³. بدأ نشاط جمعية العلماء في فرنسا سنة 1936م، واستمر إلى سنة 1956م، مع انقطاع لهذا النشاط وقع خلال سنوات الحرب العالمية الثانية. وفي هذا الإطار تأسست في باريس وأقسامها نحو عشرة شعب أو فروع للجمعية، فضلا عن شعب أخرى تأسست في مناطق مختلفة من فرنسا. للمزيد في الموضوع أنظر: (بورنان، 2013).

الجزائرية الذي زار باريس سنة 1947م عروضاً شائعة، أثارت فيهم مشاعر الاعتزاز والطموح، فكانت أمنية كل من شاهدهم هي رؤية ابنه مثل هؤلاء الأطفال في يوم من الأيام (سعداوي وبلعباس، د. ت: 1).

في الواقع، كان مجرد التفكير في إنشاء مؤسسة تربوية خارج النظام الرسمي الاستعماري آنذاك يُعد، في نظر السلطات الفرنسية، أمراً مقلقاً يستوجب الحذر، فقد كانت هذه السلطات ترى في التعليم العربي الإسلامي خطراً يهدّد مشروعها الاستعماري الرامي إلى طمس الهوية الجزائرية، لكن رغم إدراك شباب قرية "أحريق" للمخاطر المتوقعة، فقد باشرُوا العمل لتحقيق مشروعهم التربوي بكل عزم وإصرار.

2- إنشاء المدرسة وبدء التعليم فيها:

تفيد تقارير سرية للإدارة الفرنسية أنّه بالتوازي مع ما ذكرناه من مساعي المهاجرين في باريس، وبفضل الأموال التي أرسلوها، قام أبناء القرية في أرض الوطن ببناء قاعة صغيرة وتهيئتها للدراسة، ثم استقدموا أول معلّم للتعليم فيها، وهو الشيخ أعمار بسعة، من قرية "تاويرت" المجاورة، وكان آنذاك معلماً في زاوية صغيرة بإحدى قرى بني دواله⁴. وتذكر التقارير أيضاً أنّه في هذه الأثناء تكوّنت في القرية جمعية محلية صدر الإعلان عن تأسيسها في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية بتاريخ 25 فيفري 1950م، تحمل اسم "الجمعية الإسلامية للتربية والتعليم لقرية أحريق"، تولى أمانتها العامة السيّد حمودي حسين⁵.

وهكذا اجتمعت جهود المغتربين الذين أمدوا المشروع بالمال، بجهود أهل القرية الذين لم يبخلوا بسواعدهم، فأسفرت عن إتمام المشروع في ظرف قصير. ورغم محاولات الإدارة الفرنسية عرقلة إنجاز المدرسة، ورفض الترخيص لها بمباشرة عملها التربوي، فقد افتتحت المدرسة، وانطلق التعليم فيها ابتداءً من شهر نوفمبر من عام 1949م، بعد الترخيص لها من طرف جمعية العلماء (يسلي، 1991: 311). ويبدو أنّ هذا الإصرار من القائمين على المشروع ينسجم تماماً مع وصية الشيخ ابن باديس لأحد المعلمين العاملين في الحقل الإصلاحي، حيث كتب إليه قائلاً: «أشير عليكم أولاً بطلب رخصة التعليم حسب القوانين، فإذا مُنعت من الرخصة فعلموا واستعدوا للمحاكمة». (داوي، 2015).

كان الشيخ أعمار في بداية الأمر يُعلّم على الأرض وبعض الحصائر، وكان يُدرّس اللغتين العربية والفرنسية، للصغار نهاراً وللأكبار ليلاً، وفي السنة الموالية تم تجديد القاعة الدراسية وتوسيعها، وتجهيزها بالسبورة والطاولات التي جيء بها من نواحي سيدي عيش جهة الصومام، وقد حُمِلت على أكتاف رجال القرية (سعداوي وبلعباس، د. ت: 2).

عمل الشيخ أعمار مدة سنتين، لكن تعليمه لم يكن في مستوى ما يطمح إليه شباب القرية الذين تأثروا بالفكر الإصلاحي التنويري لجمعية العلماء بفرنسا، إذ لاحظوا عليه ضعف مستواه العلمي، ومحدودية نشاطه، وغلبة الأساليب التقليدية العقيمة على برامج وطريقته في التدريس، فضلاً عن اهتمامه المفرط باللغة الفرنسية بدل اللغة العربية، لذلك لم تجد جمعية القرية بُدّاً من أن تطلب من رئيس جمعية العلماء، الشيخ البشير

⁴ . Voir : - ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Chef de C.M Haut – Sebaou, (11 Février 1953), activité Oulama au village Ahrik, rapport adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.

- ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Caid d'Akfadou (15 Décembre 1949), lettre adressée au chef de C.M Haut – Sebaou.

⁵ . Chef de C.M Haut – Sebaou, (11 Février 1953), O ,pcit.

الإبراهيمي، تعويضه بمعلم آخر يكون أكثر كفاءة ودراية بأساليب التربية والتعليم، فلبى طلبهم، فأرسلت لهم الجمعية أحد معلمها، وهو الشيخ صالح صالح (سعداوي وبلعباس، (د.ت: 2)، وكان ذلك في خريف عام 1951م.

3- توسيع المدرسة وتطوير التعليم بها:

شكّل تعيين الشيخ صالح صالح⁶ إضافة تربوية نوعية لمدرسة أحريق، إذ كان يتّبع في دروسه طرقا تعليمية مواكبة للمناهج الحديثة القائمة على الفهم والتفاعل لا الحفظ والتلقين. وقد أطلعني الشيخ في مقابلة معه في بيته على مذكرات دروسه التي كان يُعدها لتلاميذه، فكان من بين مواد المنهاج: القرآن الكريم والتربية الدينية، اللغة العربية وما يتبعها من قراءة ونحو وصرف وإنشاء، الحساب، السيرة النبوية، تاريخ الجزائر، مبادئ أولية في الفقه، إلى جانب الأناشيد الوطنية.⁷

في البداية اقتصرَت الدراسة على الأطفال الذكور، غير أنّه في سنة 1952م تم توسيع المدرسة ببناء مسكن للمعلّم، وقسم خاص بتعليم البنات. (سعداوي وبلعباس، (د.ت: 3). على غرار المبادرة التي سبق أن قام بها الإمام عبد الحميد بن باديس بقسنطينة. وبذلك أصبحت المدرسة تستقبل أطفال القرية من الجنسين. وفي السنة ذاتها، تم تعيين معلم ثانٍ بالمدرسة من قبل جمعية العلماء، وهو الشيخ العربي شريف⁸، فأصبح المعلمان يتقاسمان المهام التربوية، وقد تولى الشيخ العربي الإشراف على دروس محو الأمية وتعليم القرآن للكبار، والتي كان يقدمها بصفة منتظمة قبل صلاة المغرب في مسجد القرية، كما تولى تعليم البنات في المدرسة. (يسلي، 1991: 315).

ومن المبادرات التي تم إدخالها في المدرسة، توظيف وسائل بيداغوجية في التدريس تتماشى والمناهج الحديثة، وتنظيم اختبارات فصلية وامتحانات آخر السنة، إلى جانب إقامة حفل في آخر كل سنة دراسية لتكريم التلاميذ المتفوقين وتشجيعهم. (يسلي، 1991: 312). ولا شك أنّ هذه الإجراءات لها أهميتها في تحقيق

⁶ . الشيخ صالح: من مواليد 1927م بقرية الشرفة "أنهلول"، دائرة عزازقة بولاية تيزي وزو. درس بزاوية القرية، ثم بجامع الزيتونة لمدة ثلاث سنوات (1946-1949م)، حيث أجبرته الظروف المادية وفقدان العون على التوقف عن الدراسة والعودة إلى الوطن قبل أن يتحصّل على الشهادة الأهلية. بعد عودته انخرط في سلك التعليم الحر، حيث اشتغل في عدد من مدارس جمعية العلماء: مدرسة أولاد إبراهيم ناحية مشدالة بولاية البويرة، لمدة سنة 1950-1951، مدرسة أحريق 1951-1954م، مدرسة التهذيب بحي الأبيار بالعاصمة إلى غاية 1962م. بعد الاستقلال عيّن أستاذا بإحدى متوسطات العاصمة، ثم نُقل سنة 1965م إلى دار المعلمين ببوزريعة، ومكث بها إلى أن أُحيل على التقاعد سنة 1987م. (فضلاء، د.ت: 235-236). أيضا بطاقة معلومات عن الشيخ صادرة عن الإدارة الفرنسية:

(Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou, Les écoles coranique, Chef de C.M Haut – Sebaou, (18 Juin 1953), école coranique d'Ahrik, notice de renseignements, adressée au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.

⁷ . مقابلة شخصية مع صالح صالح بتاريخ 25 ماي 2008).

⁸ . العربي شريف: من مواليد 1905م بسيدي عيش ولاية بجاية. اشتغل إماما في سيدي عيش 1941/32م، ومدرسا حرا في خراطة 1945/42م. سُجن لمدة 8 أشهر إثر أحداث ماي 1945م. وبعد خروجه من السجن اشتغل مدرّسا حرا في "توجة" 1948/47م، ثم في مدرسة الخلدونية ببجاية 1952/49م. اجتاز بنجاح امتحان المعلمين سنة 1949م. عُيّن للتدريس في مدرسة أحريق في أكتوبر 1952م. بطاقة معلومات عن الشيخ صادرة عن الإدارة الفرنسية بتاريخ: 31 ديسمبر 1952م. وأخرى بتاريخ 16 أكتوبر 1953. (ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158).

متابعة دورية لتحصيل التلاميذ، وتطوير الأداء التربوي بالنسبة للمعلم، فضلا عن دورها الفعال في تعزيز دافعية التلاميذ نحو التحصيل العلمي والتنافس الإيجابي داخل القسم.

وفضلا عن الأنشطة التعليمية في القسم، حرص الشيخ صالح على القيام بأنشطة أخرى موازية تتمثل في تنظيم خرجات ميدانية للتلاميذ، بهدف السّياحة والترفيه أحيانا، والدراسة والتدريب في أحيان أخرى. فكان التلاميذ وهم يقطعون الجبال والوديان سيرا على الأقدام، يرددون في جو مليء بالحماس والنشاط الأناشيد الوطنية، ومن جملتها: شعب الجزائر مسلم، موطني موطني، كشّافُ هيا، من جبالنا طلع صوت الأحرار.. إلخ. (يسلي، 1991: 313). وهذا إدراكا منه لأهمية مثل هذه الأنشطة في التكوين الجسدي والنفسي للتلاميذ، وإسهامها في تنمية روح الجماعة وحب الوطن فيهم.

4 - علاقة مدرسة "أحريق" بجمعية العلماء:

مدرسة "أحريق"، مدرسة إصلاحية حرّة، كانت تعمل في إطار جمعية العلماء وتحت إشرافها. فالجمعية هي التي اضطلعت بمهمة تعيين المعلمين، والإشراف عليها من الناحية التربوية والتنظيمية. وفي هذا الإطار حظيت المدرسة بزيارات متكرّرة من عدد من أعضاء الجمعية. فقد زارها الشيخ أحمد قصبية، خلال جولته إلى المنطقة في مطلع سنة 1951م، وكان في رفقته الأستاذ حسن حموتن، مدير مدرسة الشّيبية بتيزي وزو.⁹ وزارها في مطلع سنة 1953م الأستاذ إبراهيم مزهودي، وكان في رفقته أيضا حسن حموتن.¹⁰ كان الأستاذ مزهودي يشغل منصب مفتش للتربية في مدارس جمعية العلماء، لذلك من المرجّح أن تكون زيارته قد جاءت في سياق تفقد سير العملية التعليمية، وتوجيه المدرّسين، وهذا في إطار سعت الجمعية لربط المدرسة بخطها الإصلاحي العام، وبمدارسها الحرّة التي أنشأتها عبر مختلف مناطق البلاد. أما الأستاذ حسن حموتن، فقد أثمرت زيارته لقرية أحريق ومدرستها عن تأليف قصيدة شعرية مطوّلة نشرها في صحيفة البصائر، خصّ فيها قرية "أحريق" بثناء جميل، فوصفها بـ "سيّدة القرى"، و"دُرّة جرجرة"، كما أشاد بأهلها وبمآثر مدرستها في ميدان التربية والإصلاح. كما وثّق في قصيدته ما كانت تتعرّض له المدرسة ومعلّموها من مضايقات الإدارة الفرنسية وعملائها.¹¹

هذا وقد نشرت صحيفة البصائر في أحد أعدادها تقريرًا صحفيا حول النشاط الإصلاحي في قرية أحريق، أشادت فيه بالجهود التربوية التي يبذلها معلّم المدرسة، وهما الشيخ صالح والشيخ العربي شريف، ونوّعت بإخلاصهما وكفاءتهما في التدريس، ودورهما في تربية الناشئة على القيم الإسلامية ونشر الفكر الإصلاحي في تلك الجبال. كما أثنت على أهالي القرية وتعاونهم في إنشاء المدرسة ودعمها، وقد خصّت بالثناء أبناء القرية العاملين في فرنسا الذين كانوا يُمُدّون المدرسة في كل شهر بنصيب من أجورهم¹²، التي تذهب لتغطية تكاليف الصيانة وأجور

⁹. أحمد قصبية، "حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 154، 7 ماي 1951، الجزائر، ص8.

¹⁰. Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou, Les écoles coranique, Chef de C.M Haut – Sebaou, (17 Janvier 1953), Association musulmane d'éducation et d'instruction du village Ahrik, rapport mensuel sur activité des Zaouias, adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.

¹¹. حسن حموتن، "اضطهاد العربية في أحريق"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 256، 2 جانفي 1954، الجزائر، ص5.

¹². عمر بوعناني، "أحريق بني جرجر تشارك في النهضة الإصلاحية"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 213، 16 جانفي 1953،

المعلمين والنفقات المختلفة التي تحتاج إليها المدرسة. وفي مقدمة هؤلاء المغتربين الحاج لونيس براهيمي (1900-1979م) الذي وصفه التقرير «بالرجل العصامي»، و«حاتم زمانه»، و«من المتفانين في خدمة جمعية العلماء، والمتشبعين بفكرتها»¹³.

ويجدر التذكير بأنّ الحاج لونيس هذا كان قد استقر بفرنسا مهاجرا منذ ثلاثينات القرن الماضي، وكان له فندق ومطعم بـجي "إبرفيلي" بإحدى ضواحي باريس، وهناك احتك بقادة جمعية العلماء ونشاطها، وتأثر بدعوتها الإصلاحية، فساندها بماله وتأثيره المعنوي على عمال قريته، إذ كان مسموع الكلمة بينهم¹⁴.

وبالفعل فقد ورد في بعض التقارير الفرنسية أنّ عمال قرية أحريق بباريس، والبالغ عددهم سنة 1953م نحو المائة، كانوا يدفعون كل شهر 500 فرنك فرنسي لكل واحد منهم، يضعونها بيد الحاج لونيس ليرسلها لمدرسة أحريق¹⁵.

وفضلا عن ذلك فقد دأب الحاج لونيس على استقبال معتمدي جمعية العلماء بفرنسا، أمثال الفضيل الورتلاني وسعيد البيباني، في فندقه، كما استضاف الشيخّ البشير الإبراهيمي أثناء رحلته إلى باريس في مطلع الخمسينات¹⁶. وقد قيل أنّ الحاج لونيس، من فرط إعجابه بالشيخّ الإبراهيمي، أطلق اسم "البشير" على الغرفة التي اعتاد الشيخّ الإقامة فيها¹⁷.

5- الدور الإصلاحي لمعلمي مدرسة أحريق:

لم يقتصر عمل معلمي المدرسة على التعليم، بل اهتموا أيضا بالإصلاح الاجتماعي من خلال دروسهم في مسجد القرية، والاحتفالات التي تُقام في المناسبات الدينية كيوم عاشوراء، والمولد النبوي، حيث كانوا في خطبهم يعظون الناس ويرشدونهم، ويحاربون البدع والخرافات والتقاليد الفاسدة المنتشرة في المنطقة، كالذبح على الموتى، وزيارة المشعوذين والدجالين. وحرص الشيخّ صالح صالح بالخصوص أشد الحرص على تصحيح المفاهيم والتصوّرات الخاطئة المنتشرة بين الناس، وخاصة تلك المرتبطة بمكانة المرأة، إذ كان بعض الناس ينظرون إليها نظرة احتقار إلى درجة أنّ ميلاد بنت عند أحدهم يُعدّ أمرا غير مرغوب فيه.

وفي سياق جهوده الإصلاحية في هذا الجانب، كان الشيخّ صالح يستغل بذلك بعض الوقائع اليومية باعتبارها مدخلا عمليا للدعوة إلى تحسين وضع المرأة، وتصحيح نظرة المجتمع إليها. من ذلك ما قام به حين رُزق ببنت، حيث فاجأ أهل القرية بطلقات البارود احتفاءً بميلادها، وقد أثار هذا السلوك دهشة أهالي القرية، لما فيه من خروج عن عادة مألوفة عندهم، حيث درجوا على هذا الفعل فقط عند ولادة الذكور. لكن الشيخّ استغل المناسبة ليوّجه الناس، ويبيّن لهم أنّ هذا التمييز بين الأنثى والذكر لا أصل له في الدين، بل هو من بقايا الجاهلية التي جاء الإسلام ليُبطلها، مؤكدا أنّ الفرح

¹³ . نفسه.

¹⁴ . مقابلة شخصية مع صالح صالح ، 25 ماي 2008.

¹⁵ . Caid d'Akfadou, (31 Décembre 1952), information sur Hadj Brahim Lounis, Opcit.

¹⁶ . مقابلة شخصية مع صالح صالح ، 25 ماي 2008.

¹⁷ - محمد أرزقي فراد، "أحريق.. سيّدة القرى"، جريدة الشروق، (يومية)، العدد 2314، 31 ماي 2008، الجزائر، ص25.

بميلاد البنت لا ينتقص من شهامة الرجل، بل يعكس نظرة مستنيرة، وفهما صحيحا لقيم المساواة والتكريم التي أقرها ديننا الحنيف للمرأة منذ ولادتها¹⁸.

ومن مواقف الشَّيخ صالح في هذا الصَّدد، حادثة مؤثرة سمعتها عنه أيضا، مفادها أنَّه في أحد الأيام، وبينما كان يُدرِّس تلاميذه، شاهد من نافذة القسم امرأة تمر حاملة على ظهرها حزمة من الحطب كما جرت العادة في المنطقة، رغم أنَّها حامل، فما كان من الشَّيخ إلَّا أن خرج إليها مسرعا، وطلب منها وضع الحزمة على الأرض، ثم أرسل ابنها الموجود بالقسم إلى المنزل لإحضار والده أو أحد إخوته ليتولى حمل الحطب. حاولت المرأة إقناعه بأنَّها معتادة على هذا العمل، لكنه أصرَّ على طلبه¹⁹، رافضا أن يقف ساكنا أمام هذا المشهد المألوف الذي يعكس معاناة المرأة الريفية في حياتها اليومية. وهنا يمكن القول أنَّ ما قام به الشَّيخ صالح في قرية أحريق وما جاورها، في مسألة تعليم الفتاة ومعاملة المرأة بصفة عامة، يُعبِّر بوضوح عن عمق وعيه الاجتماعي وتبنيه لنظرة إصلاحية متقدمة إزاء قضايا المرأة المطروحة آنذاك في المنطقة.

وجدير بالذكر أنَّ البنت في هذه المنطقة، كما في أغلب مناطق الوطن آنذاك، كانت محرومة من حقها في الدراسة في المدارس والزوايا، وهذا بدافع من تصوُّرات اجتماعية تقليدية سادت في تلك الفترة، قامت على الاعتقاد بأنَّ التحاق البنات بالمدارس يشكِّل تهديدا للفضيلة، ومصدرا محتملا للفتنة، وعليه فإنَّ إقصاء البنت من المدرسة - في نظر الناس - هو السبيل الأمثل لحماية الدين وصيانة العرض. لذلك فإنَّ تجسيد هذه الخطوة، أي تعليم البنات، لم يكن بالأمر السَّهل، فهو يستوجب جهادا فكريا يصحَّح المفاهيم، ويُنير العقول، ويقضي على تلك التصوُّرات الفاسدة. ولبلوغ هذه الغاية، لم يكتف الشَّيخ صالح بمجرد التوجيه والوعظ المعتمد على مبادئ الإسلام وتعاليمه، بل استعمل أيضا الأدلة العقلية والحجج المنطقية لإقناع الناس بقبول فكرة تعليم بناتهم. كل ذلك يجعل الشَّيخ صالح من أوائل المبادرين إلى تمهيد السَّبيل أمام تعليم الفتاة في منطقة القبائل.

هذا وقد آتت جهود الشَّيخ صالح التوعوية بثمارها في المدى القريب، إذ تجاوب أهل القرية مع فكرة تعليم الفتاة، ويظهر ذلك في إقدام الأسر على إرسال بناتهم إلى المدرسة. ولا أدل على نجاح هذه المبادرة الإصلاحية من تقارب أعداد التلاميذ من الجنسين في المدرسة، حيث كان تعداد تلاميذ المدرسة سنة 1953م كالآتي: 57 تلميذا تتراوح أعمارهم بين 6 و15 سنة، و50 تلميذة، تتراوح أعمارهن بين 6 و12 سنة²⁰.

ولم ينحصر النشاط الإصلاحي لمعلمي المدرسة على قرية أحريق ومدرستها، بل تعداه إلى القرى المجاورة، خاصة الشَّيخ صالح الذي كان آنذاك شابا يتمتع بالحيوية والنشاط، فكان يقوم من وقت لآخر بزيارات للقرى المجاورة رفقة رجال القرية بهدف بثِّ الوعي الديني والروح الوطنية في أوساط أهاليها، وقد أسفرت هذه الجهود عن إنشاء مدرسة في قرية "تاكوشت"، ساهم في بنائها أهالي أحريق، وقامت بمهامها لبضع سنوات، وبناء مدرسة

18. مقابلة شخصية مع صالح صالح ، 25 ماي 2008.

19. نفسه

20 . Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou, Les écoles coranique, Chef de C.M Haut – Sebaou, (17 Février 1953), activités Oulama au village Ahrik, rapport adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.

أخرى بقرية "إكوسة" والتي باشرت أيضا التعليم لبضع سنوات، تلتها مدارس أخرى في كل من قرية: تازروت، وتاوريرت، وآيت صالح، إلا أنّ هذه المدارس لم تُفتتح أبوابها، ولم تُباشر أنشطتها التربوية بسبب اندلاع الثورة التحريرية في نوفمبر 1954م. (سعداوي وبلعباس، (د.ت: 2).

6- موقف الإدارة الاستعمارية من تشييد المدرسة ونشاطها التربوي والإصلاحي:

أول من ناصب العداء لمشروع بناء مدرسة إصلاحية في قرية أحريق، هو قايد دوار "أكفادو" الذي حرّر - فيما قيل - نحو 53 مخالفة تغريم ضد حسين حمودي، رئيس "الجمعية الإسلامية للتربية والتعليم لقرية أحريق" المكلفة بإنجاز المدرسة، وهذا بحجة مخالفة القانون رغم امتلاك أهل القرية لرخصة البناء²¹. وتدل التقارير السرية التي كان يبعث بها القايد إلى حاكم بلدية "سيباو الأعلى"، التي يتبع لها دواره، على تخوّفه الشديد من هذا المشروع منذ كان فكرة، ما جعله - كما قال - يفتح تحقيقا سرّيا لتتبع الموضوع وأصحابه. بل إنّه ذهب بعيدا فأوصى في أحد تقاريره «بعدم الترخيص لهذه المدرسة»، لأنّ الذين سعوا في إنشائها - حسب زعمه - هم «أصحاب سيرة سيئة، وميولهم السياسية مع حزب الشعب»²². ونفس التهمة ألصقها القايد بالحاج لونيس براهيمي، الذي وصفه بالمحرّض الأول لتأسيس مدرسة أحريق، وغيرها من المدارس التي ظهرت في دوار أكفادو²³.

وتكشف تقارير القايد عن مخاوف واضحة من تنامي التأثير المعنوي للشّيوخ صالح والعربي شريف على سكان قرية أحريق، وهو ما اعتبره عاملا معيقا في تسيير شؤون القرية²⁴. ومما زاد من هذه المخاوف، أنّ نشاط الشّيوخ تجاوز حدود قرية أحريق ليشمل العديد من قرى "بني يجر". حيث أشار القايد في تقاريره إلى سعيهما لإنشاء جمعيات محلية تُعرف بـ "جمعيات التربية والتعليم"، وفتح مدارس يرى أنّها تنطوي على أهداف سياسية تفوق طابعها التربوي المعلن. وقد أقرّ بأنّ نفوذهما في اتّساع، وأنّ سكان هذه القرى باتوا يستقبلون هذه المبادرات بترحيب واسع²⁵، الأمر الذي دفعه إلى المطالبة مرارا بنقل الشّيوخ العربي شريف إلى مدينة الجزائر، بدعوى تسهيل مراقبته والتحكم في تحركاته، على خلاف ما هو عليه الأمر في قرية أحريق²⁶.

أما الإدارة الاستعمارية المعروفة بتوجّسها الشديد من مثل هذه المشاريع التربوية المستقلة، وحرصها على إبقاء أبناء الجزائر، أو "الأندجان" كما تُسميهم، في دائرة الجهل والتميش، وحرمانهم من كل ما من شأنه أن يرفع مستواهم الثقافي، ويزرع في نفوسهم الأمل، وفي عقولهم بذور الوعي، فقد رفضت إعطاء الترخيص الرّسمي لفتح المدرسة، وفي المقابل ضلّت تمارس سياسة التضييق على نشاطها ومعلّمها. فقد أغلقت المدرسة لبضعة أسابيع مرتين: الأولى في خريف 1952م، والثانية في ربيع 1953م²⁷، كما جرى رفع دعاوي قضائية ضد

²¹ - شهادة للسيد عمر حمودي ابن حسين حمودي، نقلا عن: محمد أرزقي فراد، مرجع سابق، ص 25.

²² . ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Caid d'Akfadou (15 Décembre, 1949), lettre adressée au chef de C.M Haut – Sebaou.

²³ . ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Caid d'Akfadou (3 Aout 1954), rapport adressé au chef de C.M Haut – Sebaou.

²⁴ . ANOM, Les écoles coranique, carton N° 91505/158, Chef de C.M Haut – Sebaou, (16 Octobre 1953), Cherif Larbi, école réformiste d'Ahrick, rapport adressé au préfet d'Alger.

²⁵ . Ibid.

²⁶ . Ibid. Voir aussi: Chef de C.M Haut – Sebaou, , (17 Février 1953), Opcit.

²⁷ . Chef de C.M Haut – Sebaou, (11 Février 1953), Opcit.

عدد من معلّمها مرات عديدة، كما حدث مع الشّيخ عمر بسعة، والشّيخ صالح صالح، والشّيخ العربي شريف، الذين أحيّلوا على محكمة "عزازقة"، حيث كانت المحكمة في كل مرّة تُصدر في حقهم أحكاما بالتغريم تراوحت بين 8000 و15000 فرنك فرنسي، وذلك بتهمة مزاوله التعليم وفتح مدرسة بدون رخصة²⁸.

هذا وقد كان معلمو المدرسة محل مراقبة مستمرة من قبل قايد الدوار والإدارة الاستعمارية الفرنسية التي كثيرا ما ورد في تقاريرها بأن هؤلاء المعلّمين على صلة بحزب الشعب، وبأنهم يحملون توجهات معادية لفرنسا. وفي محاولة للحدّ من تأثير هذه الحركة الثقافية التي نشأت بقرية أحريق، اقترح محافظ تيزي وزو، في تقرير موجه إلى والي الجزائر، إنشاء مدرسة فرنسية مكوّنة من أربعة أقسام في دوار "أكفادو"، تتولى تعليم أبناء قرى: آيت صالح، تاكوش، حورة، وأحريق، واقترح أن تُقام في قرية "آيت صالح". وقد أوضح في تقريره أنّ الغرض من هذه المبادرة هو كبح نشاط العلماء المتزايد في المنطقة، وفي الوقت ذاته، الاستجابة لرغبة الأهالي في تعليم أبنائهم، مشيرا إلى أنّ هذا المشروع سيكون «ضروريا ومفيدا»²⁹. ويبدو من مضمون التقرير أنّ هذا الاقتراح جاء انعكاسا مباشرا لتخوّف الإدارة الاستعمارية من اتّساع دائرة تأثير معلمي مدرسة أحريق، خاصة بعد أن بدأت قرى أخرى تحذو حذوهم، من خلال تأسيس جمعيات للتربية والتعليم، وشروعها في إنشاء مدارس حرّة لتعليم أبنائها.

وما يجدر التنويه به، هو صمود أهل قرية أحريق واستماتتهم في الدفاع عن مدرستهم في المحاكم الفرنسية. ففي إحدى جلسات المحاكمة وقف أمين القرية مدافعا عن مدرسة قريته المتهمة بتدريس الوطنية التي تعتبرها فرنسا وأعوانها جريمة كبيرة تستوجب أشد العقاب، وغلق المدرسة. ولما اقترح القاضي على أمين القرية تدريس الفرنسية، ووضع المدرسة تحت الإشراف الفرنسي لكي لا يُحكم بغلقها، أجابه بقوله: «إن أردت فرنسا تعليم لغتها عليها أن تبني بنفسها المدارس لمن يرغب في تعلّمها، وتصرّف عليها، أما نحن فلُعُتْنَا تكفيننا». فقال القاضي: «فرنسا لا تستطيع بناء المدارس لجميع الأهالي، ولا تملك المال الكافي للإنفاق عليها». فردّ عليه أمين القرية: «فرنسا لا تستطيع بناء المدارس، لكنها تستطيع غلق مدارسنا التي بنيناها بأموالنا». وأمام هذه الإجابة المفحمة، لم يكن للقاضي إلّا أن زجر بغضب، ونطق بالحكم الذي يقضي بأن تدفع القرية غرامة مالية باهضة³⁰.

وبهذا، يتّضح أنّ الإدارة الاستعمارية كانت ترى في النشاط التعليمي والإصلاحي الذي ظهر في قرية أحريق تهديدا مباشرا لهيمنتها وسياساتها الرامية إلى تجهيل وتهميش الأهالي، لذلك انتهجت سياسة التضييق تجاه المدرسة ومعلّمها، وتجاه أعيان القرية أيضا. وقد تجلّى ذلك في فرض الغرامات، ورفض منح التراخيص، فضلا عن مبادرة إنشاء مدرسة رسمية لمواجهة تأثير العلماء في الناحية. غير أنّ هذه المضايقات لم تفلح في كسر إرادة المعلّمين، ولا في إضعاف عزيمة

²⁸. تقارير عديدة تفيد بذلك، مثل هذه التي سبق ذكرها:

- ANOM, Rapport du Chef de C.M Haut – Sebaou adressé au Sous préfet de Tizi- Ouzou, (11 Février 1953).

- ANOM, Lettre du Caid d'Akfadou adressée au chef de C.M Haut – Sebaou, (15 Décembre 1949).

- Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou, Chef de C.M Haut – Sebaou, notice de renseignements adressée au Sous-préfet de Tizi- Ouzou (18 Juin 1953).

²⁹. Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou, Les écoles coranique, Sous-préfet de Tizi- Ouzou, (13 Juin 1954), création d'une Association d'éducation et d'enseignement - village Takoucht, rapport adressé au préfet d'Alger.

³⁰. أكلي بلعباس، "الغيث يا جمعية العلماء"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 63، 17 إلى 24 سبتمبر 2001، ص 13.

أهل القرية الذين استماتوا في الدفاع عن مدرستهم في المحاكم الفرنسية، وأبدوا تضامنا لافتا في تحمّل الغرامات المالية المفروضة عليهم، إيماننا منهم بأنّ مشروعهم التربوي يستحق كل تضحية.

7- مآثر ومصير المدرسة:

أبرز مآثر مدرسة أحريق، هي توفير التعليم لأبناء القرية الذين بقوا طويلا محرومين من هذه النعمة. فحسب جريدة البصائر فإنّ عدد من كانوا يزاولون الدراسة في المدرسة سنة 1953م، «ينيف عن مائة وخمسين تلميذا، ما بين البنات والبنين»³¹. وتلك أمنية غالية تحققت للآباء الذين طالما تمنوا أن يروا أبناءهم يذهبون إلى المدرسة، بدل بقائهم متسكعين في الطرقات.

يذكر الأستاذ أكلي بلعباس، وهو من تلاميذ مدرسة أحريق، أنّ عمال قريتهم في المهجر آنذاك، قد غمرتهم فرحة لا توصف، لما وصلتهم رسائل بخط أبناءهم بعد ستة أشهر فقط من شروع المدرسة في نشاطها التعليمي. وحسبه أيضا فإنّ فرحة أولئك العمال كانت أعظم من فرحة الفرنسيين بخروج الألمان من بلادهم³².

ولم يكن دور المدرسة ومعلميها مقتصرًا على التعليم، بل تجاوز ذلك إلى بثّ الوعي الديني والوطني بين سكان قرية أحريق، ما جعلهم يساهمون بوعي في دعم المشاريع التربوية أينما كانت، إدراكا منهم بأهمية الاستثمار في التعليم كوسيلة للنهوض والتحرّر. لذلك لم يكتفوا بإنشاء مدرستهم، والمساهمة في إنشاء المدارس في القرى المجاورة لهم، بل تجاوزوا أيضا مع المبادرات التربوية خارج منطقتهم، من ذلك: تقديم إعانة مالية لمعهد ابن باديس بقسنطينة، وتقديم إعانة أخرى للمساهمة في إنشاء مدرسة بمدينة الغزوات بالغرب الجزائري. وقد ذكر لي الشّيخ صالح أنّ رئيس جمعية العلماء، الشّيخ البشير الإبراهيمي، أثناء تدشين مدرسة الغزوات قد أشاد بأهل قرية أحريق وخصّهم بالثناء، واعتبر هذه المساهمة التي جاءت من قرية نائية بجبال جرجرة مثالا يُحتذى في البذل والإنفاق من أجل التعليم³³. (ص. صالح، مقابلة شخصية، 25 ماي 2008).

ومن مظاهر تأثير المدرسة وإشعاعها الثقافي والوطني أيضا، الاستعداد المبكر الذي أظهره سكان القرية لاحتضان الثورة التحريرية المباركة والمشاركة فيها، حيث تم ذلك إثر الاتّصال الأوّل للمجاهدين في منتصف سنة 1955م بسكان القرية. وقد عبر عن ذلك أحد قادة الثورة في الناحية، وهو المجاهد "سي عبد الله"، حين اجتمع برجال القرية، حيث صرّح أمامهم قائلا: «هذه أوّل قرية ندخلها في هذا العرش بدون تحفّظ ولا تخوّف ولا سابق تحضير، فلسنا هنا ندعوكم إلى نظام الثورة لأنكم في هذا النظام، وفي طريق الثورة. وما ندعوكم إليه هو الاستمرار والثبات على ما أنتم عليه». (سعداوي وبلعباس، د. ت: ص 3). وهكذا انخرط جل أبناء القرية في صفوف الثورة، البعض منهم في صفوف جيش التحرير كمجاهدين، وبعضهم في مجال العمل الفدائي في المدن الفرنسية، مثل باريس ومرسيليا، وبعضهم الآخر انضموا إلى مختلف أنشطة الثورة في إطار المنظمة المدنية لجهة التحرير. (سعداوي وبلعباس، د. ت: ص 4). ولا شك أنّ هذا التجنيد الجماعي الذي أبداه سكان القرية قد دفع الجيش الفرنسي لتسليط شتى ألوان البطش والتقتيل والتعذيب على القرية، خاصة بعد سنة 1957م، وقد قدمت القرية عشرين شهيدا،

³¹. عمر بوعناني، مرجع سابق، ص 2.

³². أكلي بلعباس، مرجع سابق، ص 13.

³³. مقابلة شخصية مع صالح صالح، 25 ماي 2008.

كما سجن وعُذّب الكثير من رجال ونساء القرية طوال سنوات الثورة في مراكز ومعتقلات الناحية، أما عدد المجاهدين من أبناء القرية الذين أدركهم الاستقلال، فكانوا حوالي 25 مجاهداً. (سعداوي وبلعباس (د،س): ص 4).

يجدر التذكير بأنّ الشّيخين: صالح صالح، والعربي شريف قد غادرا مدرسة أحريق في بداية أكتوبر 1954م. ورغم اندلاع الثورة في نوفمبر 1954م، وما صاحب ذلك من ظروف أمنية صعبة، فقد استمرت المدرسة في أداء مهامها التربوية، وقد تولى مهمة التعليم فيها خلال هذه الفترة الحساسة، عدد من الشيوخ، وهم: العربي لونيس، الحسن بن مهدي، عمر سلطاني، والشّيخ محمد عباس، الذي هو آخر من تولى التعليم في المدرسة. (يسلي، 1991: 312). غير أنّ اشتداد العمل الثوري في المنطقة، إلى جانب تخوّف السّلاطات الاستعمارية من نشاط المدرسة، دفع الحاكم العسكري الفرنسي إلى غلق المدرسة في سنة 1956م، وهذا إثر قصف مدفعي استهدف المدرسة، أدى إلى استشهاد أحد تلاميذها، وهو "محمّد الطّاهر بلعباس"، الذي مرّقت جسده قذيفة مدفعية". (سعداوي وبلعباس، د. ت: 3). في حادثة مروّعة ظلت محفورة في ذاكرة سكان القرية.

ومن المآثر التربوية التي تُذكر لمدرسة أحريق أيضاً، هي أنّها مكّنت عدداً من طلبتها من مواصلة تعليمهم الثانوي بمعهد ابن باديس بقسنطينة، حيث أشار تقرير البصائر الذي سبق ذكره، إلى أنّ «للمدرسة بعثة إلى المعهد»³⁴. وأكد لي الشّيخ صالح، أنّ نحو 17 تلميذاً من طلبة المدرسة أُدرجوا ضمن البعثة الطلابية التي أرسلها قائد الولاية الثالثة، العقيد عميروش سنة 1957م، لمتابعة تعليمهم في المعاهد العلمية وفي المدارس العسكرية بتونس ومصر وغيرهما من الدول العربية³⁵. وكان الغرض من هذه البعثة وبعثات أخرى مماثلة، هو إعداد هؤلاء الطلبة ليكونوا إطارات المستقبل في الجزائر المستقلة. وبالفعل فقد عاد أكثرهم بعد الاستقلال برتبة ضباط سامين، والبعض الآخر إطارات معتبرة في الدولة. (فضلاء، 1999: 164).

وذكر لي الشّيخ صالح أيضاً أنّ المدرسة كانت لها مشاركة فعالة في تغطية نقص التّأطير في قطاع التعليم غداة الاستقلال، إذ قدمت نحو 72 معلماً ومعلمة، تم تعيينهم في مختلف مدارس القرى والمدن المجاورة. وقد ارتقى عدد من هؤلاء في الوظائف التربوية والإدارية، فأصبحوا مديرين ومفتشين³⁶، ساهموا في النهوض بالمنظومة التربوية.

لقد تعددت مآثر مدرسة أحريق إذن، فمشاركة سكان القرية في دعم المشاريع التربوية خارج قريتهم، واحتضانهم المبكّر للثورة التحريرية، إلى جانب تكوين المدرسة لأطُر مدنية وعسكرية خدمت الجزائر المستقلة، كلها شواهد حيّة تعبّر عن نجاح هذا المشروع التربوي رغم تواضع إمكانياته المادية، كما تعكس هذه الإنجازات عمق الأثر الإيجابي الذي أحدثته المدرسة في محيطها الاجتماعي، وتجاوز الدور التعليمي المحض، لتصبح أداة من أدوات نشر الوعي والفكر المقاوم.

خاتمة:

يتضح مما سبق أنّ الفضل الكبير في إنشاء مدرسة حرّة في قرية أحريق يعود إلى أبناء القرية المغتربين بفرنسا، فهم الذين بادروا بطرح فكرة المشروع، وهم الذين تحمّلوا القسط الأكبر من تكاليف إنجاز المدرسة

34. عمر بوعناني، مرجع سابق، ص 2.

35. مقابلة شخصية مع صالح صالح، 25 ماي 2008.

36. مقابلة شخصية مع صالح صالح، 25 ماي 2008.

والإنفاق عليها من أجورهم. وهذه التجربة جسدت بوضوح تأثير الحركة الإصلاحية في أوساط الجالية الجزائرية بالمهجر، وفي الوقت ذاته عبّرت عن مستوى الوعي الذي بلغه أفراد هذه الجالية الذين أجبرتهم الظروف الاجتماعية على الهجرة بحثا عن لقمة العيش، لكن ذلك لم يُنسبهم هموم مجتمعاتهم وإخوانهم في القرية، وفي مقدمتها حاجة أبنائهم إلى التربية والتعليم.

ولسكان القرية المقيمين فضلًا لا يقل عن فضل إخوانهم المغتربين، فقد أنجزوا المدرسة بسواعدهم، وقاوموا ضغوط الاستعمار بإصرارهم وصمودهم، واستمرت المدرسة في أداء رسالتها لسنوات بتضامنهم واستماتتهم في الدفاع عن المدرسة ومعلميها، وتحملهم لتبعات قرارات المحاكم الاستعمارية الجائرة.

ومدرسة أحريق هذه، تُعدّ مثالاً حياً للدور المتعدد الأبعاد الذي نهضت به المدارس الحرّة في الجزائر إبّان الحقبة الاستعمارية، فقد تحوّلت بفضل جهود معلّميها، ودعم محيطها المحلي، إلى مؤسسة تعليمية إصلاحية، ساهمت بفعالية في نشر العلم، وترسيخ الفكر الإصلاحي المطبوع بالوطنية، حيث لم تنحصر مهمتها في تلقين المعارف، بل تعدت ذلك إلى بث الاعتزاز بالهوية الثقافية، وزرع الوعي التحرري في النفوس، فساهمت بذلك في الإعداد النفسي والفكري لتقبل فكرة الثورة حين تحين ساعة انطلاق المواجهة الحاسمة مع المستعمر.

ولا شك أنّ هذا المشروع التربوي الإصلاحي الذي احتضنته قرية صغيرة من قرى جبال جرجرة، وما أحدثه من إشعاع ثقافي امتد إلى القرى المجاورة، لم يكن ليمر دون أن يثير قلق السلطات الاستعمارية، لذلك فقد سعت هذه السلطات لعرقلة المشروع وتعطيله بكل الوسائل الممكنة، بداية من التضييق القانوني، وانتهاءً بالغلق القسري للمدرسة، حين فشلت في الحد من تأثيرها المتنامي في القرية وفي القرى المجاورة.

وهكذا، ورغم العراقيل والمعوقات الاستعمارية، فقد استمر عمل المدرسة بفضل إخلاص معلّميها وصبرهم، وتضحيات أبناء القرية المهاجرين والمقيمين، وبفضل وفاء الجميع لهذا المشروع التربوي. فنجحت المدرسة بذلك في تكوين أجيال من الطّلبة الذين خدموا الجزائر بعلمهم بعد الاستقلال، وتسجيل صفحة مشرقة في نضال هذه القرية الصغيرة في حجمها، العظمية بعزيمة وهمة أهلها.

- البيبليوغرافيا:

- الأرشفة:

A - Archives Nationales d'outre-mer (A.N.O.M).

• Carton intitulé « Les écoles coraniques », N° 91505/158:

1. Caid d'Akfadou (Septembre 1955), lettre adressée au chef de C.M Haut – Sebaou.
2. Caid d'Akfadou (15 Décembre 1949), lettre adressée au chef de C.M Haut – Sebaou.
3. Caid d'Akfadou (3 Aout 1954), rapport adressé au chef de C.M Haut – Sebaou.
4. Caid d'Akfadou, (31 Décembre 1952), information sur Hadj Brahim Lounis, rapport adressé au chef de C.M Haut – Sebaou.
5. Chef de C.M Haut – Sebaou, (11 Février 1953), activité Oulama au village Ahriq, rapport adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.
6. Chef de C.M Haut – Sebaou, (12 Décembre 1952), notice de renseignements sur chikh Cherif Larbi.

7. Chef de C.M Haut – Sebaou, (16 Octobre 1953), Cherif Larbi, école réformiste d'Ahrick, rapport adressé au préfet d'Alger.

B - Archives de la wilaya de Tizi – Ouzou (A.W.T.O), (Fonds des archives de l'administration française).

• **Carton intitulé « Les écoles coraniques », sans cote:**

1. Chef de C.M Haut – Sebaou, (17 Février 1953), activité Oulama au village Ahrick, rapport adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.
2. Chef de C.M Haut – Sebaou, (17 Janvier 1953), Association musulmane d'éducation et d'instruction du village Ahrick, rapport mensuels sur activité des Zaouias, adressé au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.
3. Chef de C.M Haut – Sebaou, (18 Juin 1953), notice de renseignements sur chikh salah salah.
4. Chef de C.M Haut – Sebaou, (18 Juin 1953), école coranique d'Ahrick, notice de renseignements, adressée au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.
5. Chef de C.M Haut – Sebaou, (3 Juin 1954), création d'une Association d'éducation et d'enseignement - village Takoucht, adressée au Sous-préfet de Tizi- Ouzou.
6. Le Gouverneur General de L'Algerie (23 avril 1953), école coranique réformiste d'Ahrick, rapport adressé préfet d'Alger.
7. Sous-préfet de Tizi- Ouzou, (13 Juin 1954), création d'une Association d'éducation et d'enseignement - village Takoucht, rapport adressé au préfet d'Alger.

- الدراسات

1. بورنان سعيد، (2013)، نشاط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بفرنسا 1936 - 1956، الجزائر: دار هومة
2. فضلاء محمد الحسن، (1999) المسيرة الرائدة للتعليم العربي الحر بالجزائر، ج2، الجزائر: دار الأمة
3. فضلاء محمد الحسن، (د.ت)، من أعلام الإصلاح في الجزائر، ج4، الجزائر: دار هومة.
4. يسلي مقران، (1991)، الحركة الدينية والإصلاحية في منطقة القبائل 1920 – 1954 م، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الجزائر: كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجزائر

- الصحف:

1. بلعباس ألكي، "الغيث يا جمعية العلماء"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 63، 17 إلى 24 سبتمبر 2001، الجزائر.
2. بوعناني عمر، "أحريق بني جرجر تشارك في النهضة الإصلاحية"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 213، 16 جانفي 1953، الجزائر.
3. حموتن حسن، "اضطهاد العربية في أحريق"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 256، 2 جانفي 1954، الجزائر.
4. فراد محمد أرزقي، "أحريق.. سيّدة القرى"، جريدة الشروق، (يومية)، العدد 2314، 31 ماي 2008، الجزائر.
5. قصيبة أحمد، "حركة جمعية العلماء بعمالة الجزائر"، البصائر، (أسبوعية)، العدد 154، 7 ماي 1951، الجزائر.
6. داوي مصطفى، (2015، ماي، 5)، النشاط التعليمي والإصلاحي لجمعية العلماء المسلمين بمنطقة الجلفة إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر، صحيفة "الجلفة أنفو"، (<https://www.djelfainfo.dz/ar/post.php?id=8413>).

- المحاضرات غير المنشورة:

- 1- سعداوي أحمد، بلعباس محي الدين، من قدماء طلبة مدرسة أحريق، (د.ت)، نشأة الحركة الإصلاحية في قرية أحريق، (محاضرة غير منشورة)، قرية "أحريق".